أهمية علم الكلام عند الإمام القرطبي

كمال الدين نور الدين مرجوني
أستاذ مشارك بقسم العقيدة والأديان – بجامعة العلوم الإسلامية الماليزية
Universiti Sains Islam Malaysia (USIM)

ملخص

لعب الإمام القرطبي دورا بارزا في تفسير القرآن الكريم، فاحتل مركزاً ممتازاً في أوساط الفقهاء والمفسرين، وقد أفاد من علماء الأندلس وعلماء مصر، فاتسعَت مداركُه في علوم عصره، وخاصة الفقه والتفسير، ويمثل تفسيرَه خلاصة ثقافته، ولذلك فإنه مشهور بصاحب التفسير والفقه، ودور هذا البحث هو الكشف أمام الباحثين والمعنِيين بالدرس العقدي عن شهرة أخرى للإمام القرطبي وهو صاحب الفكر العقدي ومؤيِّدًا للمنهج الأشعري الكلامي في حديثه عن مسائل العقيدة، وأثبت البحث بأن الإمام القرطبي كان سنِّيًا أشعريًا، ينتصر لمذهب أهل السنة والجماعة ويدافع عنه، وهذا البحث يدل على قيمة جهود الإمام القرطبي في الدفاع عن العقيدة الأشعرية. وهذا واضح من ثنايا تفسيره المكون من أربعة وعشرين مجلدا بعنوان: "الجامع لأحكام القرآن" وخاصة في كتابه الخاص المكون من مجلدين وهو كتاب: "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى".

الكلمات المفتاحية: علم الكلام، العقل والنقل، والتأويل

أهمية علم الكلام عند الإمام القرطبي

مقدمة

إن مسائل أصول الدين قد بينها الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر، إذ أن أمور الإعتقاد من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس، وعلم العقيدة الإسلامية وهو ما يسمى بعلم الكلام من أشرف العلوم وأجلها، لأنه العلم بالله، وآياته، وأسمائه، وصفاته، وكذلك العلم بالنبوات، وكل علم ما يتعلق بأمور الآخرة من بعث، وجنة، ونار ... إلخ.

وفي البداية نشير إلى أن الإمام ابن تيمية أبدَى إعجابَه بعلماء الكلام وبالتحديد المدرسة الأشعرية، وذلك في خدمتهم الفكرية المتفتحة، وجهودهم في تشييد قيم الوسطية والإعتدال في تناول القضايا العقائدية واعتبرهم –على لسان الفقيه أبي محمد– من "أنصار أصول الدين"، وهذا نصُّ الكلام في مجموع الفتاوى له: "وكذلك رأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد فتوى طويلة، فيها **أشياء حسنة** قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها: ... ، ومن لعن أحداً من المسلمين عزر على ذلك تعزيراً بليغاً. والمؤمن لا يكون لعاناً، وما أقر به من عود اللعنة عليه، ... قال: وأما لعن العلماء لأئمة الأشعرية فمن لعنهم عزر. وعادت اللعنة عليه فمن لعن من ليس أهلاً للعنة وقعت اللعنة عليه. والعلماء أنصار فروع الدين، والأشعرية أنصار أصول

الدين"[١]. ويُعدُّ هذا النص من الأقوال الرائعة في هذا الباب وفي غاية التسامح المذهبي، وبخاصة نحن المعنيين بالدرس العقدي المختص في معالجة مسائل العقيدة بالأدلة النقلية والبراهين العقلية.

وهذا بحث عن جهود الإمام القرطبي في الدفاع عن العقيدة الإسلامية على الطريقة الأشعرية، وهو كما لا يخفى على الباحثين يُعدُّ الإمام القرطبي من بين جهابذة المفسرين.

وعالج هذا البحث أربعة مواقف للإمام القرطبي–وفي نفس الوقت– يُعدُّ منهجه وطريقته في دراسة العقيدة الإسلامية:

الأول: موقف الإمام القرطبي من علم الكلام.

الثاني: موقف الإمام القرطبي من إشكالية النقل والعقل.

الثالث: موقف الإمام القرطبي من قضية التأويل الكلامي.

الرابع: موقف الإمام القرطبي من الصفات الإلهية.

موقف الإمام القرطبي من علم الكلام

نشأ علم الكلام للرد على الفرق والأديان المخالفة للعقيدة الإسلامية، وأن الهدف الرئيسي هو إقامة الأدلة والحجة وإزالة الشبه، وتقييم العقائد المنحرفة عن الدين. وعرف الإيجي علم الكلام بأنه: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد"[٢]. وفي تعريف آخر –لعلم الكلام– عند ابن خلدون يقول: (هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة) [٣]. والإمام الغزالي يقول: (وإنما المقصود منه —علم الكلام— حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة)[٤]. وهذا التعريف الأخير هو المشهور الذي عَبَّرَ عنه أَغْلَبُ مَنْ يشتغلون بهذا العلم. وهو التعريف الراجح عندنا. وذلك أن غاية نشأة هذا العلم هو الدفاع عن العقيدة الإسلامية.

ومن هذه التعريفات السابقة يمكننا أَنْ نستخْلصَ أَنَّ مبدأَ علمِ الكلامِ أسَاسُهُ حفظ العقيدة وإثباتها عن طريق الأدلة العقلية، وليس إنشاء العقيدة في قلب المؤمن، فهو بذلك يقوم بتوضيح العقيدة، وشرحها، وتدعيمها بالأدلة العقلية، وتمييزها عما يغايرها من عقائد وأصول منحرفة عن الدين، والرد على

---

[١] مجموع فتاوى ابن تيمية، كتاب مفصل الإعتقاد، ١٢/٤، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ٢٠١١م.

[٢] الإيجي، كتاب المواقف، ص ٣١ ، درا الجيل، بيروت ط١ ١٩٩٧م ، تحقيق : د. عبد الرجمن عميرة .

[٣] ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٨، دار القلم ، بيروت ط١٩٨٥/٥م .

[٤] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ٧١، دار الأندلس، ط١٩٦٧/٧م.

الشبه التي يوردها أصحاب الديانات المخالفة للإسلام. إذن، فقد جاء علم الكلام ليواجهَ جُمْلَةً من التحديات والإشكالات التي واجهت العقلَ المسلمَ على مستوى العقيدة.

ولأهمية علم الكلام ومكانته في التاريخ العام للدراسات العقائدية عند الإمام القرطبي، فتحدث الإمام القرطبي ودور المتكلمين في الدفاع عن العقيدة الإسلامية في أكثر من موضع في تفسيره: "الجامع لأحكام القرآن"، وعلى سبيل المثال في تفسيره لقول الله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ) –النور: ٣٥–. يقول الإمام القرطبي: "النور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر. واستعمل مجازا فيما صح من المعاني ... يجوز أن يقال: لله تعالى نور من جهة المدح، لأنه أوجد الأشياء، ونور جميع الأشياء، منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلَّ وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وقد قال هشام الجوالقي وطائفة من المجسمة: هو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام. وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إن قولهم متناقض؛ فإن قولهم جسم أو نور حكم عليه بحقيقة ذلك، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفي لما أثبتوه من الجسمية والنور؛ وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام[٥].

واضح من هذا الكلام وتعليقات الإمام القرطبي في بيان معنى النور وحقيقته، وبخاصة أنه ذكر مرتين في هذا النص كلمة "علم الكلام"، بل أكدَّ بأن هذه القضية تحتاج الرجوع إلى آراء علماء الكلام، لأنهم المتخصصون في هذا العلم، والمتخصصون في هذا الجانب قد عُرفوا بالمتكلمين، ويقصد الإمام القرطبي هنا المدرسة الأشعرية.

وفي مواضع كثيرة لا تُحْصَى من ثنايا تفسير الإمام القرطبي المكون من أربعة وعشرين مجلدا بعنوان: "الجامع لأحكام القرآن" وكتابه في العقيدة المسمى بـ: "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى". وقد ختمت قرائتهما صفحة بصحفة [٦]. حيث ذكرَ الإمام القرطبي أسماء عدد من علماء الأشعرية، وذلك في أول تفسيره لسورة الفاتحة، وبالتحديد في مسألة اختلاف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض، لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر بن

---

[٥] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/٢٥٦.

[٦] هذه القراءة لأجل إعداد رسالتي العلمية، وذلك للحصول على الماجستير من قسم الفلسفة الإسلامية، بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، سنة ٢٠٠٢م، بعنوان: "مسائل الإعتقاد عند الإمام القرطبي، كمال الدين نور الدين مرجوني، ونشرها مؤسسة العليا للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٦م.

الطيب [٧]. وهكذا راجع الإمام القرطبي قول الإمام أبي الحسن الأشعري ومجموعة من علماء الأشعرية في المسائل الكلامية، ومنها مسألة الكرامة: "ولا نمنع أن يطلع بعض أوليائه على حسن عاقبته، وخاتمة عمله وغيره معه، قال –به– الشيخ أبو الحسن الأشعري"[٨]. ومسألة حقيقة العقل: "وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري، والأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وغيرهما من المحققين العقل هو: العلم بدليل أنه لا يقال عقلت وما علمت أو علمت وما عقلت. وقال القاضي أبو بكر: العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات، وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، وهو اختيار أبي المعالي في الإرشاد[٩].

واستفاد الإمام القرطبي من رأي الإمام الجويني في مسألة الجهة: "عن إمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني: أنه سئل عن الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك[١٠].

وقد صرَّح الإمام القرطبي دور الإمام أبي الحسن الأشعري في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والتصدّى على الشيعة، والمعتزلة، والقدرية، والجبرية: "فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة، وصارت للمبتدعة شيعة، والتبس الأمر على السلطان، حتى قال الأمير بخلق القرآن، وجبر الناس عليه، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك. فانتدب رجال من أهل السنة: كالشيخ أبي الحسن الأشعري، وعبد الله بن كلاب، وابن مجاهد، والمحاسبي وأضرابهم، فخاضوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم"[١١].

والملاحظ من هذا النص، فقد خصَّص الإمام القرطبي بالذِّكْرِ على أن هؤلاء العلماء الأجلاء –وبه الإمام أبو الحسن الأشعري– كانوا من علماء أهل السنة. وفعلا، كان الإمام أبو الحسن الأشعري على حدِّ تعبير الشيخ طاش كبري زاده –وإلى جانب الإمام أبي منصور الماتريدي–: "رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان: أحدهما: حنفي، وهو الإمام أبو منصور الماتريدي، والآخر: شافعي، وهو الإمام لأشعري[١٢]. وأكدَّ في موضع آخر بأن الأشعرية هم أهل السنة: "دلت الآية على أن الله سبحانه مريد بإرادة قديمة أزلية زائدة على الذات. هذا مذهب أهل السنة، كما أنه عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام. وهذه كلها معان وجودية أزلية زائدة على الذات"[١٣].

---

[٧] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/١٠٩.

[٨] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/٢٨٩.

[٩] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/٣٧٠.

[١٠] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/١٢٤.

[١١] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/٢١٤.

[١٢] مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبري زاده، ٢/١٥٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٣م.

[١٣] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/٣٠١.

وهذا بعينه رأى المدرسة الأشعرية –الذي وصفه الإمام القرطبي– القائلون بأن الصفات زائدة على الذات، وذلك بقياس الغائب على الشاهد، فإن علة كون الشيء عالما في الشاهد هي العلم فكذلك الأمر في الغائب، وحد العالم من قام به العلم، فكذلك حده في الغائب. وأيضا لو كان مفهوم كونه عالما حيا قادرا نفس ذاته لم يفد حملها ذاته، ولو كان العلم نفس الذات والقدرة نفس الذات لكان العلم نفس القدرة، وكان المفهوم من العلم والقدرة أمرا واحدا، وكذلك الحال في باقي الصفات التي يقول المعتزلة إنها عين الذات، وليست زائدة على الذات[١٤].

بل أورد الإمام القرطبي في تفسيره الحديث عن ما يتعلق باصطلاحات المتكلمين كالجوهر والعرض، فلا مانع من استعمالها عنده، وذلك أن القرآن والسنة قد دلاَّ على معناها، وفي ذلك يقول عند تفسير قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) –الأنعام: ١–. فيقول: "ذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض، لكون الجوهر لا يستغني عنه، وما لا يستغني عن الحوادث فهو حادث، والجوهر في اصطلاح المتكلمين هو الجزء الذي لا يتجزأ الحامل للعرض ... وقد أتينا على ذكره في الكتاب "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" في اسمه (الْوَاحِدُ) وسمي العرض عرضا لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال والجسم هو المجتمع وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان وهذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة في الصدر الأول فقد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى لإنكارها وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها وبنوا عليها كلامهم وقتلوا بها خصومهم"[١٥].

ويقول الإمام القرطبي في كتابه "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى": لا يصح أن يعتقد أن الله تعالى نور ... لأن النور لون قائم بالهواء، وذلك محال على الله عقلا ونقلا، فأما العقل، فلو كان عرضا أو جسما لجاز عليهما، يلزم تغيره وحده، وأما النقل فقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) –الشورى: ١١–، ولو كان جسما أو عرضا لكان كل شيء منهما مماثلا له[١٦].

ومن هنا أيَّد الإمام القرطبي منهج علماء الكلام بشروط حدَّده بدِقَّة:

- الأول: أن يكون مستهدفا للدفاع عن العقيدة الإسلامية. حيث يرى بأن الذين يدافعون عن الدين، ويبطلون كل شبهة فاسدة في بالاصطلاحات الكلامية، فمرتبته قريبة من النبيين، يقول في ذلك: "ومن نظر الآن في اصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدين فمنزلته قريبة من النبيين"[١٧].

---

[١٤] الإيجي، كتاب المواقف، ص ٤٨٠.

[١٥] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٨٦/٦.

[١٦] الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي، ٤٦٣/١ وما بعدها.

[١٧] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢١٤/٢.

واضح من هذا الكلام أن الإمام القرطبي وقف إلى جانب المتكلمين المعتدلين–كالأشعرية والماتريدية–، بل اعتبرهم من العلماء المقربين لمنهج الأنبياء.

- الثاني: أن يكون الجدال والمناقشة فيه لإظهار الحق.

يرى الإمام القرطبي إجازة الجدال والمناقشة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين، بخلاف مجادلة أهل الأهواء، فإنها منازعة باطلة، وأشار إليه في تفسيره لقول الله تعالى: (وَمَا يُجَادِلُ فِي آيتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا) –غافر: ٤–، فيقول: "سجل –سبحانه– على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد: الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق، وإطفاء نور الله –تعالى– وقد دل على ذلك في قوله –تعالى–: (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) –غافر:٥، فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله[١٨]. ويقول رحمه الله في موضع آخر: لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله[١٩].

- الثالث: أن لا يؤدي تعلمه إلى تقبيح من أخذ بالأثر.

وذم الإمام القرطبي غلاة المتكلمين كالجهمية، والقدرية، والمعتزلة الذين يزعمون أن الحق والصواب في طريقتهم الكلامية، وأن غيرهم لا يصل إلى الحق والصواب، فهم في نظر الإمام القرطبي منحرفون، قوله في ذلك: "فأما من يهجن من غلاة المتكلمين طريق من أخذ بالأثر من المؤمنين، ويحض على درس كتب الكلام، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهتها بتلك الاصطلاحات فصاروا مذمومين[٢٠].

وإذا تأملنا أقوال المعارضين لعلم الكلام بصفة عامة يمكننا القول بأنهم يغفلون دوافع نشأة علم الكلام وتطور الفكر الإسلامي، التي أدت إلى نشأته من إثبات العقيدة الإسلامية والدفاع عنها، وتوضيحها بأدلة عقلية، وأما استخدامه للمصطلاحات الكلامية، فإنها من ضروريات العلم وفنه، وذلك من أجل فهم العلم وتفسيره، لأن كل علم له مصطلاحاته الخاصة، وفي هذا يتسابق العلماء في كتابة علم المصطلحات لكل فروع الدراسات الإسلامية، وعلى سبيل المثال: علم المصطلح الحديث، علم المصطلحات

---

[١٨] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٩٢/١٥.

[١٩] الجامع لأحكام القرآن، القربطي، ١٨٥/٢.

[٢٠] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢١٤/٢.

الفقهية وأصولها، مصطلحات علم التفسير، مصطلحات علم التاريخ وغيرها من التسميات الدالة على المصطلحات العلمية.

وإضافة إلى ذلك وبطبيعة الحال فإن مخاطبة أهل الاصطلاح بلغتهم، واستخدام اصطلاحاتهم في الحوارات أو المناقشات العلمية بالضرورة يؤدِّي إلى فهم جيد للحوار، ومنه يفهم حجتهم وأساليبهم، وبالتالي الرد عليهم بسهولة.

ومن هذا المنطلق، يرى الإمام القرطبي جواز استخدام المصطلحات الكلامية التي تؤدي إلى الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية، ولا سيما استخدام المصطلحات التي لها معان في القرآن والسنة، وأما الكلام المخالف للكتاب والسنة فلا يجوز عنده، ونقطة مهمة في هذا المجال الكلامي، يرى الإما القرطبي عدم المصارحة بعلم الكلام إلى عوام الناس، فيقول رحمه الله في بيان قول رسول الله ﷺ: (حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله) [٢١]. وهذا محمول على بعض العلوم، كعلم الكلام أو ما لا يستوي في فهمه جميع العوام، فحكم العالم أن يحدث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته. والله أعلم[٢٢].

وبعد، فهذا اختصار مبسط لبيان مكانة متكلمي الأشعرية عند الإمام القرطبي، ويظهر أنه ينقل آراءهم ليستفيد منهم في بيان القضايا العقائدية في تفسيره، ويتضح مما سبق من كلام الإمام القرطبي أنه يرى بأن علماء الكلام هم في الحقيقة المفكرون المناضلون والمدافعون عن العقيدة الإسلامية.

موقف الإمام القرطبي من إشكالية العقل والنقل

والعقل عند الإمام القرطبي هو كائن موجود، وليس بمعدوم، ولا بقديم، لأن القدين هو الله وحده، يقول رحمه الله: "أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم لأنه لو كان معدوما لما اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه، إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى"[٢٣].

إن الوحى لا يضاد العقل، لأن إشكالية تعارض العقل والنقل لم تنبع أصلا من داخل العقل الإسلامي، الذي تشكل بتأثير الخطاب القرآني، ولكنها طرأت نتيجة لتأثر الفكر الإسلامي بالعقل الإغريقي الثاوي في الفلسفات الإغريقية. ذلك أن المدقق في الخطاب القرآني يلحظ استنكار القرآن الشديد للعقلية التقليدية الرافضة للوحي، استنادا إلى مرجعية تاريخية وأحكام موروثة عبر الأجيال. يقول الله تعالى:

---

[٢١] أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: ١٢٧.

[٢٢] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨٥/٢.

[٢٣] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٧٠/١.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) –لقمان: ٢١– وقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) –البقرة: ١٧٠–. فهذه الآيات ترفض تقليد الآباء، يقول الإمام القرطبي: "تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل، واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية. وهذا في الباطل صحيح"[٢٤].

ومن هنا يرى الإمام القرطبي أن القرآن الكريم قد اهتم بالعقل اهتماما بالغا وكبيرا، ووجَّهَ إلى التفكر والتدبر في الميادين المختلفة، فليس محظورا على العقل أن يمارس نشاطه فيما هو من اختصاصه، وإلا فقد عطلنا هذه الغزيرة الربانية، التي جعل الله من خصائصها التفكر، واستنباط الدروس والعبر، والوصول إلى ما ينفع الإنسان في دنياه وأخراه. وفي تفسير قوله تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) –الحشر: ٢١–، يقول الإمام القرطبي: "حث على تأمل مواعظ القرآن وبين أنه لا عذر في ترك التدبر؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة؛ أي متشققة من خشية الله"[٢٥].

ولكن القرآن لا يذكر العقل في مقام التعظيم، الذي يحث فيه المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيه المنكر على إهمال عقله، وذلك أن العقل عمدة التكليف، وبه يعرف الله، ويفهم كلامه. وبناء على أن إشكالية التعارض بين العقل والنقل لم تنبع أصلا من داخل العقل الإسلامي الذي تشكل بتأثير الخطاب القرآني، ولكنها طرأت نتيجة لتأثر الفكر الإسلامي بالعقل الإغريقي الثاوي في الفلسفات الإغريقية[٢٦]. فالعقل لا يعارض النقل، بل مهمته حراسة الوحي الذي تكفل الله بحفظه من كل تأويل فاسد مضل، وحراسة أحكام الله من الإنحراف بها عن مقاصد الشرعية، وحراسة المجتمع من الآفاق الإجتماعبة والسياسية والفكرية والخلقية التي تؤدي إلى تدميره، كما يكل إلى العقل مهمة التقدم العلمي والبحث التجريبي وعمارة الأرض. قد يظن بعض علماء الدين –نتيجة تقصيرهم في فهمه– أنه معارض للعلوم العقلية، فيقفون منه موقف العداوة، والحقيقة أن الدين متى كان صحيحا في ذاته، صحيحا في فهمه، فإنه لا يعارض النتاج العقلي الصحيح في ذاته كذلك[٢٧].

---

[٢٤] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،٢/٢١١.

[٢٥] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،١٨/٤٤.

[٢٦] إعمال العقل من النظرة التجزئة إلى الرؤية المتكاملة، لوئي صافي، ٨٥، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.

[٢٧] الفلسفة الإسلامية وكانتها في التاريخ العام للفلسفة، السيد رزق الحجر، ٥٢.

وبهذا أكَّد الإمام القرطبي بأن مهمة العقل التعرف على الأمور قائلا: "وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره وإنما حظه تعرف الأمور على ما هي عليه"[٢٨]. ومن ثم فحقائق الغيب لا سبيل إلى معرفتها معرفة عقلية، وإنما طريق معرفتها الوحى. وعلى هذا فلا يعتبر العقل في مستوى الوحي، فحقائق الوحي فوق مستوى العقل وغير داخلة في نطاق عمله ومادته، وفي نفس كلام الإمام القرطبي يقول ابن خلدون: "العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد، والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال"[٢٩].

والذي يتأمل الآيات القرآنية يجد التكامل بين العقل والوحي في كثير من المواضيع وتحدث عنه الإمام القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن"، وذلك لأن العقل منحة من الله للإنسان، والوحى من الله كذلك، فالعقل والوحى مكمل كل منهما للآخر، ولا يمكن أن يتعارضا بأي حال من الأحوال، وخلق الله العقل هبة للإنسان، ليدرك به أمانة حمل مسؤلية الاستخلاف في الأرض، والتعرف على الأسباب المادية التي تعين على أداء هذه الأمانة. وفي ذلك يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) -النحل: ٧٨. "أي التي تعلمون بها وتدركون؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعدما أخرجهم؛ أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته"[٣٠].

ويعبر الإمام القرطبي عن رأيه في التكامل بين العقل والوحي فيقول: "فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء"[٣١]. وهذا التكامل لا يتحقق إلا من خلال إدراكنا أن للعقل ميدانه الذي لا يتجاوزه، وإذا كان هناك تعارض في الظاهر، فإنما هو في الواقع تعارض بين نصوص الوحي وبين الرأي، وليس بين الوحي والعقل، وبين العقل والمنطق.

اتضح بهذا العرض الموجز لجملة موقف الإمام القرطبي من العقل والنقل أنه يعتمد على العقل في استنباط ما يحتويه القرآن والسنة من الأدلة العقلية واعتبر -رحمه الله- العقل والنقل من مسالك الأدلة. وهذا ما قرره في تفسير قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) -الأحقاف: ٤٦- قائلا: "فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها، فأولها المعقول، وهو قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

[٢٨] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،١/٢٥٢.

[٢٩] المقدمة لابن خلدون، ٤٦٠.

[٣٠] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،١٠/١٥١.

[٣١] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،١٠/١٩١.

أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)، وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع. ثم قال: (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا)، فيه بيان أدلة السمع (أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ)[٣٢].

موقف الإمام القرطبي من قضية التأويل الكلامي

لما كان المتشابه هو متعلق التأويل، كان من أهم المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة والجماعة وبين أكثر الطوائف المخالفة لهم، وذلك لن أكثر الطوائف المخالفة لأهل السنة والجماعة اتخذاوا موضوع المتشابه في النصوص الشرعية ذريعة لتأويلاتهم.

اهتم أهل السنة والجماعة بهذا الموضوع اهتمام بالغا، ومنشأ الاختلاف في فهم المتشابه قراءة الوقف أو الوصل في قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) -آل عمران: ٧-، وكلاهما قراءتان ثابتتان[٣٣]. فقراءة الوقف على اسم الجلالة تدل على أن المتشابه لا يعلمه إلا الله وحده، وقراءة الوصل تدل على أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه. فتكون (الواو) عاطفة، والراسخون معطوفا على اسم الجلالة، وجملة (يقولون) في محل نصب حال.

ونقل الإمام القرطبي في كتابه "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" كلام القاضي أبي بكر بن الطيب المعروف بـ "القاضي الباقلاني" وهو متكلم أشعري، توفي سنة ٤٠٣ هـ: "فإن كان (واو) استئناف كلام وجب الوقف على قوله: إلا الله، وإن كان واو عطف لم يجب الوقف، والأولى عندنا أن تكون (واو) عطف، من حيث لم يجز أن يخاطب الله العرب وغيرها بما لا سبيل لهم إلى علمه" [٣٤].

وفي موضع آخر أورد الإمام القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" أقوال العلماء في المراد بالمحكمات والمتشابهات، ومنها:

القول الأول: قالوا: المحكمات من أي القرآن ما عرف تأويله، وفهم معناه، وتفسيره والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور"، ذهب إلى هذا القول: جابر بن عبد الله، وهو مقتضى قول الشعبي، وسفيان الثوري وغيرهما.

---

[٣٢] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،١٨٢/١٦.

[٣٣] جامع البيان عن تأويل آى القرآن، ١٨٢/٣ وما بعدها.

[٣٤] الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي،١٨٢/١٦.

القول الثاني: قالوا: إن المتشابه ما يحتمل وجوها، ثم إذا ردت الوجوه إلى وجه واحد أبطل الباقي صار المتشابه محكما، فالمحكم أبدا أصل ترد إليه الفروع، والمتشابه، هو الفرع.

القول الثالث: قالو: إن المحكمات هي: ناسخه، وحرامه، وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل له، والمتشابهات هي: المنسوخات، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به، قاله ابن عباس.

القول الرابع: قالوا: إن المحكمات هي: التي فيها حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. والمتشابهات هي: لهن تصريف، وتحريف، وتأويل، ذهب إلى هذا القول: محمد بن جعفر بن الزبير، ومجاهد، وابن إسحاق.

ويهمنا هنا في هذه الآراء هو رأى الإمام القرطبي، حيث صَّرح بأن القول الأول هو الراجح عنده قال مُرجِّحًا هذا القول: قلت: هذا أحسن ما قيل في المتشابه ... وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه[٣٥].

وقد عرَّف الإمام القرطبي التشبيه في كتابه "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" بأنه: "عبارة عن التلاقي بالكل والجزء، والشركة، وهي عبارة عن التعاون في الفعل لعدم استقلال أحد الشريكين بالفعل"[٣٦].

وتحدث الإمام القرطبي عن التأويل من حيث جوازه وحدوده، قائلا في كتابيه بنفس الكلام "الجامع لأحكام القرآن" و"الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" : " لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم البتة، كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بغيبه، وهذا لا يتعاطى علمه أحد، لا ابن عباس ولا غيره. فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فإنما أراد هذا النوع، وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة، ومناح في كلام العرب، فيتأول، ويعلم تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم؛ كقوله في عيسى: (وَرُوحٌ مِنْهُ) –النساء: ١٧١– إلى غير ذلك. فلا يسمى أحد راسخا إلا أن يعلم من هذا النوع كثيرا بحسب ما قدر له. وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل؛ لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح"[٣٧].

يفهم مما سبق من كلام القرطبي بأنه قسم المتشابهات إلى قسمين:

الأول: نوع لا يعلم به الناس مطلقا، كحقائق يوم القيامة، والجنة والنار.

الثاني: ما لا يعرفه إلا أهل الذكر الراسخون في العلم دون غيرهم.

فالتأويل عنده جائز بما لا يتعلق بالغيبيات كأمور الآخرة، ولا بد أن يكون مستدلا بالأصول المحكمة المتفق على معناها.

---

[٣٥] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/٤ وما بعدها.

[٣٦] الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي،١٨٢/١٦.

[٣٧] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/٤. وانظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ١٧/٢.

والسؤال هو ما موقف الإمام القرطبي من القول بأن التفسير موقوف على السماع فقط، ولا يحتاج إلى التأويل الكلامي؟ وذلك استنادا لقوله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) -النساء: ٥٩-.

أجاب الإمام القرطبي بأن هذا الرأى فاسد؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمر آخر وباطل أن يكون المراد به ألاَّ يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس وقال: "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"[٣٨]. فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك! وهذا بيّن لا إشكال فيه[٣٩].

وواصل الإمام القرطبي بالتعليق على هذه الإشكالية وعدم فهم هؤلاء العلماء للمعنى المراد من الآية وقال: "وإنما النهي يحمل على أحد وجهين:

- **أحدهما**: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل في طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية محتمله فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسَّره برأيه أي رأيه حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه، وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول قال الله تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) —النازعات: ١٧- ويشير إلى قلبه ويوميء إلى أنه المراد بفرعون؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز.
- **الوجه الثاني**: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من قسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لابد له منه في ظاهر التفسير أولا

---

[٣٨] أخرجه أحمد في مسنده، رقم: ٢٨٧٥.

[٣٩] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٢/١.

ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم، والاستنباط، والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ألا ترى أن قوله تعالى: (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) -الإسراء: ٥٩- . معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولا يدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا في القرآن كثير وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى إليه والله أعلم[٤٠].

وبهذا يتبين لنا أن التأويل جائز عند الإمام القرطبي وهو التأويل الناهض على هدى اللغة العربية، ومنطق العقل، وموافقة الشرع، وبنفس الوقت إذا ورد شيء من خبر الرسول ﷺ وكان موهوما في العقل، فالعمل بالخبر رغم توهم العقل فيه، ولا يجوز التأويل فيه. وفي ذلك يقول الإمام القرطبي: "وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل"[٤١]. وبذلك لم يكن للتأويلات المنحرفة مجال عند الإمام القرطبي، فكان يرفض التأويلات الفاسدة من عدة فرق منها: تأويلات الجهمية، والقدرية، والمعتزلة، والشيعة.

ونقطة مهمة في هذا الصدد وهو وجود حديث يمنع التفسير بالرأي كما روي عن عائشة رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان لا يفسر شيئا من القرآن برأيه إلا آيا بعدد علمهن إياه جبريل[٤٢]. وبيَّن الإمام القرطبي -نقلا عن ابن عطية- بأن المراد بالحديث السابق هو كما قال: "ابن عطية: ومعنى هذا الحديث في مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى، ومن جملة مغيباته ما لم يعلم الله به كوقت قيام الساعة، ونحوها مما يستقري من ألفاظه كعدد النفخات في الصور، وكرتبة خلق السموات والأرض[٤٣].

موقف الإمام القرطبي من الصفات الإلهية

والذي يراجع مؤلفات الإمام القرطبي وبخاصة كتابيه: "الجامع لأحكام القرآن"، و "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، يجد أمامه من هذين الكتابين عدم خلوهما من التأويلات، حيث إن الإمام القرطبي

---

[٤٠] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٢/١-٣٣.

[٤١] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨٦/١٥.

[٤٢] أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم: ٤٥٢٨، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

[٤٣] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣١/١.

قام بتأويل جميع الصفات الواردة فيهما. وفي البحث ثلاثة نموذجة لشهرتها أمام الباحثين في قضايا الصفات الإلهية، وهي: صفة اليد، وصفة العلو، وصفة الاستواء[٤٤].

صفة اليد

فقد أول الإمام القرطبي صفة اليد لله تعالى في تفسير قوله تعالى:
(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) –المائدة: ٦٤–: "واليد في كلام العرب تكون للجارحة، كقوله تعالى: (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً) هذا محال على الله تعالى. وتكون للنعمة؛ تقول العرب: كم يد لي عند فلان، أي كم من نعمة لي قد أسديتها له، وتكون للقوة؛ قال الله عز وجل: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ)، أي ذا القوة وتكون يد الملك والقدرة؛ قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ). وتكون بمعنى الصلة، قال الله تعالى: (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً) أي مما عملنا نحن. وقال: (أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) أي الذي له عقدة النكاح. وتكون بمعنى التأييد والنصرة، ومن قوله عليه السلام: (يد الله مع القاضي حتى يقضي والقاسم حتى يقسم) [٤٥]. وتدون لإضافة الفعل إلى المخبر عند تشريفا له وتكريما؛ قال الله تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)، فلا يجوز أن يحمل على الجارحة؛ لأن الباري جل وتعالى واحد لا يجوز عليه التبعيض"[٤٦]. ونفس الكلام أورده الإمام القرطبي –أيضا– في كتابه "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى"، فيقول موضحا عدم جسمية اليد: "وليس اليد في الصفات بمعنى الجارحة، حتى يتوهم بثبوتها ثبوت الأصابيع"[٤٧]. وهذا بعينه رأى الأشعرية –كما بيَّنَه الرازي– أن لفظ (اليد) يستعمل على سبيل المجاز إما بمعنى القدرة، فيقال:" يد السلطان فوق يد الرعية، أي قدرته غالبة على قدرتهم، وإما أن اليد يراد بها النعمة "[٤٨].

صفة العلو

العلو صفة من صفات الله تعالى الذاتية التي لا تنفك عنه، ولا يثبت الإمام القرطبي صفة العلو لله تعالى، فأوله بعلو مجده وملكوته، ويتبين من خلال أقواله في "الجامع لأحكام القرآن"، حيث قال:(فعلو

---

[٤٤] راجع: تفاصيل الصفات الإلهية عند الإمام القرطبي في كتابي (رسالة الماجستير) بعنوان: "مسائل الإعتقاد عند الإمام القرطبي، كمال الدين نور الدين مرجوني، ١٦٣–٢٢٣، مؤسسة العليا للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٦م.

[٤٥] أخرجه أحمد في مسنده، رقم: ٢٣٥١١.

[٤٦] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٣٨/٦.

[٤٧] الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ٣٨/٢.

[٤٨] الرازي، أساس التقديس، ص ١٦٢–١٦٣.

الله تعالى وارتفاعه، عبارة عن علو مجده، وصفاته، وملكوته. أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد، ولا معه من يكون العلو مشتركا بينه وبينه؛ لكنه العلي بالإطلاق سبحانه)[٤٩].

وقال في موضع آخر عند تفسير قوله تعالى: (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) –الملك:١٦–: "وقال المحققون: أمنتم من فوق السماء؛ كقول (فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ) أي فوقها لا بالمماسة والتحيز لكن بالقهر والتدبير. وقيل: معناه أمنتم من على السماء؛ كقوله تعالى: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) أى عليها. ومعناه أنه مديرها ومالكها؛ كما يقال: فلان على العراق والحجاز؛ أى وإليها وأميرها. والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة، مشيرة إلى العلو؛ لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل معاند. والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت. ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام.

ويرى الإمام القرطبي أنه خص السماء –وإن عم ملكمه– تنبيها على أن الإله الذي تنقذ قدرته في السماء، لا من يعظمونه في الأرض ... وأن الحكمة في رفع اليد إلى السماء عند الدعاء هو أن السماء مهبط الوحي، صرح بذلك الإمام القرطبي: "وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه وجنته؛ كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان. ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان[٥٠]. فهذا إبطال على المشركين الذين اتخذوا آلهة في الأرض، فبين أن الله تعالى ليس في الأرض.

وفي تفسير قوله تعالى: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْمُ) ––لبقرة: ٢٥٥–، صرَّح الإمام القرطبي بأن المراد بـ (العلي) هو: علو القدرة والمنزلة، لا علو المكان، لأن الله منزه عن التحيز[٥١].

هكذا رأى الإمام القرطبي في صفة العلو بأنه علو الغلبة والمجد، لا علو الذات.

صفة الاستواء

والاستواء من الصفات التي تنازع فيها العلماء، بل بلغ اختلافهم —كما ذكرها الإمام القرطبي في كتابه "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" إلى أربعة عشر قولا[٥٢]. وأما في كتابه "الجامع لأحكام القرآن فإن ذكر اختلافهم إلى ثلاثة أقوال فقط، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي

---

[٤٩] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٢٠/٧.

[٥٠] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢١٦/١٨.

[٥١] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٧٨/٣.

[٥٢] راجع التفاصيل في الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي، ١٢٢/٢.

الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) -البقرة: ٢٩-، أوضح الإمام القرطبي بأن هذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه[٥٣]:

- الأول: قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها، وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) -طه: ٥- قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء أخرجوه.
- الثاني: وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة. وهذا قول المشبهة.
- الثالث: وقال بعضهم: نقرؤها ونتأولها ونحيل حملها على ظاهرها. وقال الفراء في قوله عز وجل: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ)، قال: الإستواء في كلام العرب على وجهين، أحدهما: أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته، أو يستوي عن اعوجاج. فهذان وجهان. ووجه ثالث أن تقول: كان فلان مقبلا على فلان ثم استوى علي وإلي يشاتمني. على معنى أقبل إلي وعلي. فهذا معنى قوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) والله أعلم.

ويرجِّح الإمام القرطبي القول الأخير على أنه يجب فيه التأويل، ومن التأويلات التي نقلها الإمام القرطبي:

- قال البيهقي: "استوى" بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال: هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى.
- قال ابن عباس: صعد، أخذه من تفسير الكلبي، والكلبي ضعيف.
- قال سفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) : قصد إليها، أي بخلقه واختراعه، فهذا قول.
- وقيل: على دون تكييف ولا تحديد، واختاره الطبري.
- عن أبي العالية الرياحي: استوى بمعنى أنه ارتفع.
- قال البيهقي: ارتفاع أمره.
- وقيل: المعنى استولى، كما قال الشاعر: قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق. قال ابن عطية: وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) -طه: ٥-.

والملاحظ أن الإمام القرطبي في هذه المسألة لا يرجّح أحد هذه الأقوال، مثل القول بالاستيلاء، والتفويض، والقصد، والصعود، والإقبال وغيره، وكذا قول السلف بأن الله تعالى مستو على عرشه استواء يليق بجلاله. وهذا نص قوله في كتابه (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى): "وأظهر هذه الأقوال-وإن كنت

[٥٣] راجع: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٥٢/١ وما بعدها.

لا أقول ولا أختاره- ما تظاهرت عليه الآي والأخبار، أن الله سبحانه على عرشه، كما أخبر في كتابه وعلى لسان نبيه بلا كيف، بائن من جميع خلقه، هذا جملة مذهب السلف الصالح فيما نقل عنهم الثقات حسب ما تقدم"[٥٤].

ويتبين من كلام الإمام القرطبي السابق ذكره، أنه متردد في هذه المسألة، فاضطربت أقواله في تأويل هذه الصفة، ولم يرجِّحْ أي قول من تلك الأقوال والتأويلات، فيكتفي بتقرير الأقوال وتأويلات العلماء فيها. ولكنه بطبيعة الكلام، وعلى الرغم من ذلك فإنه يميل إلى التأويل، ولكنه لم يحدِّد أصحَّ التأويلات الموجودة أمامه في هذه المسألة أي مسألة الإستواء. وبخاصة أنه صرحَّ عدم قبول رأي السلف في هذه المسألة وهو عدم التأويل.

الخاتمة:

وبعد استعراض هذه النصوص المكثفة حول أقوال أو نصوص الإمام القرطبي ومدى اعتماده في دراسة المسائل العقائدية على آراء الأشعرية وترجيحها، فنقول إن الإمام القرطبي يعترف للمجهود الذي قام به الإمام أبو الحسن الأشعري باعتباره ممثلا لعقيدة أهل السنة والجماعة كما صرّح به -الإمام القرطبي- في تفسيره. ورأينا من خلال موقف الإمام القرطبي من العقل والنقل، فكان يوظِّف العقل والنقل في مكانهما اللائق، حيث جعل بينهما التكامل المعرفي في توضيح هذه العقيدة، فوَّفقَ بين المعقول والمنقول كما عليه المدرسة الأشعرية. وبهذا استطاع الإمام القرطبي والمتكلمون مواجهة التيارات المخالفة للعقيدة الإسلامية، وذلك عن طريق بلورة الأدلة -نقلية كانت أو عقلية-على صحة العقيدة الإسلامية. لأن العقل والنقل كما وضَّحه الإمام القرطبي لا تتعارض دلالتهما.

وبهذا نرى أن الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية وقضاياها يقتضي الجمع بين دلالة النص وإعمال العقل. والإعتماد على أحدهما لا يكفي. فالنص دون العقل لا يمكن فهمه، والعقل دون النص عرضة للخطأ والإنزلاق الفكري، والجمع بينهما يؤدِّي إلى حسن الفهم وسلامة الفكر. ومن هنا منع الإمام القرطبي الوقوع في التشبيه في قضية الصفات الإلهية، لأن القول بظاهر النقل يؤدِّي إلى التشبيه، فالطريق الأولى عنده تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وبناءً على ذلك، فإننا نُؤيِّدُ هذا الرأي المنهجي للإمام القرطبي القائل بأهمية علم الكلام، وضرورة الجمع بين العقل والنقل، واستخدام التأويل للآيات المتشابهات، وذلك تجنبا للوقوع في التشبيه، والخروج من تناقضات النصوص. والله أعلم.

---

[٥٤] الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ١٣١/٢-١٣٢.

مراجع البحث

- أساس التقديس، أساس التقديس، مكتبة الكليات الأزهرية. مصر، ١٩٨٦م.
- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي، مكتبة دار الصحابة طنطا–مصر.
- إعمال العقل من النظرة التجزئة إلى الرؤية المتكاملة، لوئي صافي، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٣م.
- الفلسفة الإسلامية وكانتها في التاريخ العام للفلسفة، السيد رزق الحجر، دار الوفاء، القاهرة، ط٢/١٩٩٥م.
- كتاب المواقف، الإيجي، درا الجيل، بيروت ط١ ١٩٩٧م ، تحقيق : د. عبد الرجمن عميرة .
- مجموع فتاوى ابن تيمية، كتاب مفصل الإعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ٢٠١١م
- مسائل الإعتقاد عند الإمام القرطبي، كمال الدين نور الدين مرجوني، مؤسسة العليا للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٦م.
- المقدمة، ابن خلدون، دار القلم ، بيروت ط٥/١٩٨٥م .
- المنقذ من الضلا، الغزالي، دار الأندلس، ط٧/١٩٦٧م.